

## زرياب المغني

للأستاذ عبد الحميد العبادي

- ٢ -

إذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفني والاجتماعي، فلا شك أن أنضر صفحة في ذلك التاريخ المجيد وأعجبها تكون صفحة أن الحسن علي بن نافع المغني الملقب بزرياب. فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة الى حال الحضارة. وذلك بشيئين اثنين: تحبيب الموسيقى إليها، وتنظيم حياتها اليومية.

\*\*\*

فتح المسلمون الأندلس في العقد الأخير من القرن الأول الهجري، وانتشرت قبائلهم العربية والبربرية في بساطها وحزونها ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثاني بداية جفافة كلما اجتمعت كلمتهم لم يلشوا أن تفرق بينهم الأحن والعداوات المنبعثة عن العvisية القليلة، فكانهم لا يزالون ضارين في هضاب نجد وسهول تهامة ومفاوز افريقية. ثم أخذت شئونهم السياسية تستقر وتتسق بفضل مجهودات المتقدمين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية: عبد الرحمن الداخل، وهشام، والحكم، وعبد الرحمن الأوسط. أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه فسادا واضطرابا.

وعلى العكس من ذلك كان المشرق الاسلامي في ذلك الزمان فقد استبحر فيه العمران وبلغت المدنية الاسلامية فيه غايتها، وتعلق فيه ذوو الدعة واليسار بأسباب الكمال من شئون الحياة، بعد أن استكملوا الضروري، والحاجي منها على حد تعبير ابن خلدون. وقد ساعفهم في ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معاً فاما المعتدلون منهم فكانو يستندون الى أن الدين الاسلامي دين يسر يحب من المؤمن أن يكون هينا لينا موفور الحظ من الظرف والكياسة غير فظ ولا غليظ القلب، ولا ناس نصيه من الدنيا. وأما المتطرفون فوجدوا في تقاليد الفرس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويحرمون على لذة الحياة الدنيا ومتعها، أيا كانت الطرق الموصلة إليها.

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة ارسقراطية، مرهفة الأذواق، رقيقة الطباع، ترى في الموسيقى، ومجالس الأتس والطرب، وحفلات السمر خير ما يتقعون به غلة تلك الأذواق

المرهفة والطباع المترفة. هذا هو السبب المباشر في تقدم صناعة الغناء في ذلك الزمان، وبلوغها الغاية على أيدي ابراهيم المهدى، و ابراهيم الموصل، وابنه اسحاق. وهذا هو السبب كذلك في استفاضة مجالس الأتس والطرب لذلك العهد في مدن الشرق الاسلامي عامة وبغداد خاصة، وفي بلوغ هذه المجالس درجة من التألق يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آدابا كانوا يأخذون بها من يحضرها من الندماء، والجلساء، والسمار.

من ذلك أن يكون الغناء قوامها، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين، والا يحضرها إلا من كان مهذباً، خفيف الروح، حاضر البدنه، قادراً على قول الشعر وارتجاله، فضلاً عن تذوقه وروايته عند ما يقتضى المقام ذلك.

الى هذا المشرق اتجه أمراء بني أمية الأندلسيون، وهم أبناء خلافة دمشق ورساقها، يستهذونه فنانين ومعلمين يهذبون ما غلظ من طباع العرب والبربر والمولدين، وينظمونها جميعاً في نسق واحد. وقد أهدى المشرق الى المغرب غير واحد من المغنين أمثال علون، وزرقون، ولكن زريابا كان أعظم هؤلاء جميعاً وأبعدهم أثراً.

\*\*\*

كان أبو الحسن علي بن نافع مولى للخليفة المهدى العباسي، وللسود لونه، وحلاوة شمائله لقبوه بزرياب تشبيها له بطائر أسود غرد يعرف عندهم بهذا الاسم. وقد تكاملت لزرياب كل أسباب النبوغ والتفوق موهوبها ومكسوها، فكان شديد الذكاء، لطيف الحس عارفاً بالنجوم والجغرافية، شاعراً فصيح الشعر. غير أنه كان الى الغناء أميل وبه أشغف، وقد درسه علما في كتب الأقدمين من حكماء اليونان، وعمل على استاذة اسحق الموصل زعيم المغنين في ذلك الوقت، ولشدة افتتان زرياب بالموسيقى كان تفكيره فيها لا يكاد ينقطع حتى أنه ليلهم النوبة والصوت وهو نائم، فيهب من نومه مسرعاً، ويقيد ما وقع له أو يلقيه على جاريته غزلان وهنيدة، ثم يعود الى مضجعه عجيلاً، ومن ثم قيل انه كان يأخذ ألحانه عن الجن كما قيل في ابراهيم الموصل نفسه. قالوا وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بالحنانها. ولم يأل زرياب جهداً في أن يأخذ نفسه بالأدب الرفيع والسلوك العالي المصطلح عليه في البيئة التي كان يعيش فيها ببغداد، بيثة البلاط وقصور الأمراء ورؤساء الدولة العباسية.

ويذكرون أن السبب في هجرة زرياب من المشرق الى المغرب، انه غنى يوماً في حضرة هارون الرشيد، فأخذ الخليفة

والاخلاص للاندلس التي أصبحت له وطناً، وأهل الأندلس الذين أصبحوا أهلاً له ومعشراً. فعكف على رفع مستوى الموسيقى الاندلسية وعلى النهوض بالمجتمع الاندلسي حتى يدانى المجتمع الشرقى ببغداد وقد وفق فيما قصد إليه كل التوفيق .

\*\*\*

يمكن القول بأن زرياباً نهض بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه وذلك بما أدخله على العود من اصلاح وتحسين، وبما استن من طرق جديدة في القاء الغناء وتعليمه . فقد اتخذ لنفسه وهو بالمشرق عوداً جعله على الثلث من وزن العود القديم، وصنع أوتاره من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أنانة ورخاوة، واتخذ بمها ومثلثها من مصران شبل أسد « فلها في الترتيم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاقبة بها ما ليس لغيرها » . فلما كان بالاندلس زاد أوتار العود الأربعة المقابلة للطابع الأربع وترا خامساً يقوم مقام النفس من الجسد، فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة كما يروى المقرئ . واتخذ مضارب العود من قوادم النسر بدلاً من مرهب الخشب « وذلك للطف قشر الريشة ونقاؤه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه » . وأما من حيث القاء الغناء فقد رسم زرياب أن يبدأ في الالتقاء بالنشيد بأى نقر كان ، ثم يوثق في أثره بالبسيط ويختتم بالخرجات والأهازج . أما مذهبه في تعليم الغناء فيقول فيه المقرئ « وكان اذا تناول الألقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة، وأن يشد صوته جداً اذا كان قوى الصوت ، فان كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة فان ذلك مما يقوى الصوت ولا يحد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم فان كان ألس الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع ، يبيتها في فيه ليالى حتى ينفرج فكاه . وكان اذا أراد ان يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره ان يصيح بأقوى صوته يا حجام ! او يصيح آه ! ويمد بها صوته ، فان سمع صوته بها صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا تعثره غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، عرف ان سوف ينجب وأشار بتعليمه ، وان وجد خلاف ذلك أبعده » . هذه العبارة تشير في صراحة الى ان زرياباً أنشأ بالاندلس في أوائل القرن الثالث الهجرى ما يصح أن نسميه بلغة الوقت الحاضر معهداً لتعليم الموسيقى الشرقية .

ولم يكن زرياب أقل ابتكاراً في شؤون الحياة اليومية منه في

بصناعته وظرفه وطلب الى اسحق أن يعنى به حتى يفرغ لسماعه . ولكن اسحق لم يلبث أن تحركت في صدره عوامل الغيرة والحسد والحق على تلميذه ، فخلا به وخيره بين الموت والحياة ، بين أن يقيم ببغداد فيعرض حياته للهلاك ومهجته للتلف ، وبين أن يذهب في أرض الله العريضة فينجو بحياته ، ووعدته اذا هو اختار ثانياً الأمرين أن يعينه على الرحيل بما شاء من المال ، وغير المال . فاختار زرياب الرحيل عن المشرق بأسره ، ووفى له اسحق بما وعده به من المعونة .

وتذكره الرشيد بعد أن فرغ من شغله الذي كان منهمكاً فيه وطلب الى أسحق أحضاره فقال « ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فما يرى في الدنيا من يعد له ، وما هو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدر التقصير به والتهوين لصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عني ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمير المؤمنين فانه كان به لم يمشاه ويفرط خطه ، فيفزع من رآه » . يقول المقرئ « فسكن الرشيد الى قول اسحق وقال على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كثير »

\*\*\*

خرج زرياب يؤم المغرب ، فلما كان بالفريقية اتصل بصاحبها زيادة الله الأغلب . ولكنه لم يطب له المقام بها فرحل عنها الى المغرب الأقصى ، وهنا كتب الى الحكم بن هشام ، أمير الأندلس المعروف بحبه للموسيقى ، يستأذنه في دخول الأندلس والصيرورة إليه ، فأذن له الأمير في كل ذلك من فوره . وعبر زرياب البحر الى عدوة الأندلس ، وبينما هويتأهب للرحيل الى قرطبة اذ سمع وفاة الحكم فهم أن يعود أدراجه الى المغرب لولا أن كتب اليه الأمير الجديد ، عبد الرحمن الأوسط ، يستقدمه ويعدده ان ينيله كل ما تصبو اليه نفسه من مال وجاه . فقدم عليه زرياب ، ويروون أن عبد الرحمن احتفل لمقدمه أعظم احتفال اذ خرج بنفسه من قرطبة لتلقيه . وما هو الا أن سمع غناء وحديثه حتى شغف به فغمره بفضله وانعامه وأجرى عليه من الرواتب والارزاق الشيء الكثير ، حتى لقد كان يركب وبين يديه مائة مملوك . وقدمه الأمير على سائر المغنين وبلغ من شدة شغفه به أن جعل في قصره باباً خاصاً يستدعيه منه كلما أحب سماع غنائه الرائع وحديثه العذب الطريف .

وقد لقي زرياب النعمة بمثلها وجزى المعروف بالمعروف ، ولكنه قصد الى ذلك من طريق غير مباشر ، قصد اليه من طريق النصيح



O.R. Rostem

## الزهرية العاطلة

### للاستاذ راشد رستم

لا أجد هنا من يضع لي الزهر في غرقي ، وأنا الذي  
أحب الزهر قريباً مني ، أضمه الى صدرى حيناً ، وأشمه لتسمو  
به روحي بعيداً ، أحب العطر منه ، وأحب العطف عليه .  
ليس غيرى اذن يضع الزهر لي في غرقي ، بل اختاره بنفسى  
وأرعاه وحدي

واليوم اشتريت من الزهارة الفتية الناضرة ، باقة من  
ذلك الزهر الذى تحبه ..... « روحي »

لم تدر فتاة الزهر الجميلة لماذا سألتها السماح لي اليوم أن  
أنتقى بيدي أنا تلك الزهرات الحبيبة التى سأجعل منها وحدها  
دون غيرها ، حديقتي في هذا اليوم .

سكنت فتاتي الحسنة راضية ، وتحت هادئة ، ونظرت الى  
في سرور وابتسام وعجب ! . ولم تعجب ؟ ومن عاشر الزهر  
لا يغضب .

\*\*\*

لم ترفى الفتاة قبل اليوم ألمس أزهارها بيدي ، انما أشير اليها  
بالطرف وهو كليل فتفهم منى قصدى ، وتجمع لي زهراتي  
المختارة ، تنتقيها من بين اخواتها برشاقة في حنو وعطف

مجال الموسيقى والفن ، وهذا محل العجب من سيرته . فقد ابتكر  
لأهل الاندلس ألواناً من الطعام استطابوها ونسبوا بعضها اليه ،  
وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلا من آنية المعدن ،  
وهو أول من اجتنى لهم البقلة الشهية المعروفة بالهلبيون وكانوا لا يعرفونها  
من قبل ، وعلمهم أن يبسطوا فوق ملاحف الكتان أنطاع الأديم  
اللين ، وأن يبسطوا سفر الأديم فوق الموائد الخشبية فذلك أنظف  
لها وآتق لمنظرها . وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول  
السنة الأربعة ، فيتدرجوا من الخفيف الأبيض صيفاً الى الثقيل الملون  
شئاً . ولقنهم الى أنواع من الطيب والعطر لم يلبثوا أن أقبلوا عليها  
وافضلوها على ما كانوا يتعطرون به من قبل ، كما علمهم كيف ينظمون  
شعورهم تصفيفا وتدويرا وأرسالا .

\*\*\*

لاندري بالدقة متى توفي زرياب والغالب ان وفاته كانت في أماره  
الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط ( ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ ) وكما رزق  
زرياب الخطوة عند اهل الاندلس في حياته فقد رزقها ذكره عندهم  
بعد مماته . ذلك بأن مذهبه في الغناء ومارسمه لهم من أسلوب المعيشة  
ظل باقيا متوارثا فيهم حتى آخر أيامهم . فلما انتهى امر الاندلس وخرج  
من تبقى من أهلها إلى بلدان افريقية الشمالية انتقل اليها بانتقالهم  
متدار غير قليل من صناعة زرياب وآدابه . يقول ابن خلدون عند  
ذكره زريابا « فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى  
ازمان الطوائف وطامنها بأشيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب  
غضارتها إلى بلاد العدو بأفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها  
وبها الآن منها صباية على تراجع عمرانها وتناقص دولها »  
ويقول المقرئ « وكان زرياب قد جمع الى خصاله هذه الاشتراك  
في كثير من ضروب الظرف وفنون الآداب ولطف المعاشرة وحوى  
من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يجده  
أحد من أهل صناعته حتى اتخذه ملوك اهل الاندلس وخواصهم  
تدوة فيما سته لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته فصار الى آخر أيام  
أهل الاندلس منسوباً اليه معلوما به »

\*\*\*

كان أهل رومية القديمة على عهد نيرون يلقبون سريا من  
سراهم اسمه بطرونيوس برب الظرف وسلامة الذوق لأنه كان عندهم  
مضرب المثل في ذلك . أما أهل الاندلس فقد وصفوا زريابا بأنه  
« معلم الناس المروءة » وهو لاشك أجمل وصف يوصف به وأحقه  
بأن يحفظه عليه التاريخ ويذكره به .

عبد الحميد العبادي